

فلسفة التربية

كما براها فمؤسفة الغرب

الناحيتان الاجتماعية والنفسية

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٠ —

—>>><<<—

« لا يعيش المرء بالخبز وحده »

« الانجيل »

« إن عقل الرجل ليضيق ، وإن مشاعره إزاء غايات الانسانية
لتتجبر إذا ما قصر فكره على الحصرات ، أو المادلات
الجبرية ، أو تذيب أسنان الدبابيس ! »

« جون ستيوارت مل »

« لا كمال إلا بانحاد الجهد والشوق ، وهنا يكون للمرء
ساجداً مع التيار ؛ أما الشوق دون ما جهد فظن فوق التيار ،
كما أن الجهد دون ما شوق سباحة ضد التيار »
« هورن »

رأيت في المقال لآنف ما تستطيع أن تستفيد التربية من
على الحياة ووظائف الأعضاء . وسترى اليوم فائدتها بالمثل من
على النفس والاجتماع

الناحية الاجتماعية

وتتلو هذه الناحية ناحية الفسيولوجيا . والتربية هنا هي
الأسلوب الذي يجعل الفرد مشاركاً في حياة الجنس ، ويعنى
بعلاقته مع غيره من أعضاء الجماعة ومثلهم العليا . وعناصر هذه
الناحية ثلاثة : الإدراك والوجدان والتزوع ، أى الحق والجمال
والخير .

١ — أما « الحق » فسيبله « العقل » الذى يبدأ بالمحسوس
وينتهى بالمعقول ، والذى تشمل علومه « الموضوعيات »
و « الذاتيات » على السواء . وتعرفنا هذه « العلوم » بالعالم
وتشجعنا على البحث وتحريها من الأوهام . فدراسة الطبيعة مثلاً
تقوى فينا « الملاحظة » و « الاستقراء » وبعد « النظر »
و « التجويد » ، وتمكننا من السيطرة على القوى الطبيعية ،

وننتهى بنا إلى فكرة « الوحدة » التى يتدمج فيها الكون كله .
ودراسة الرياضة تعطينا كما يقول المسيو Berthelot : فكرة واضحة
عن « القياس » ، وننتهى بتفكيرنا إلى نتائج مؤكدة ، ربت
فيها احترام الحق ، وتقدم لنا أكبر أداة للبحث الدقيق فى علم
الطبيعة . أما الفلسفة والأخلاق واللغة والفن والدين فقيمتها
جميعاً عظيمة إلى أبعد حد وإن خلت من النفع المحسوس كما
ينهمك دعاة « الخبز » ؛ ألم يقل الانجيل « لا يعيش المرء بالخبز
وحده » ؟ أو لا ترتفع هذه العلوم بالمرء إلى عليين وتجعله فوق
البشر ؟

٢ — وأما « الجمال » فسيبله العاطفة ويشمل الفن والدين .
والجمال المحسوس وحدة تسيطر على كثرة ، وتبدو فى مادة مجسم
معنى . وأرقى الفنون هو « الأدب » ، وأرق ما فى الأدب
« الشعر » ، والعلاقة بين الفلسفة والأدب هى أن هذا يعبر عن
الحياة بالإلهام ، وتلك تعبر عنه بالمنطق ؛ كما أن العلاقة بين الفن
والدين هى أن هذا يعبر عن الشعور إزاء الشيء الإلهي ، وذلك
تعبير عنه إزاء الشيء الجليل . هذا وقيمة الفنون فى التربية عظيمة
بحيث لا سبيل إلى إغفالها . أليس الإحساس بالجمال أمتع شعور
يستطيع أن ينعم به العقل ؟ أو لا يعدنا ذلك الإحساس بقوة
سامية تعيننا على الرفعة فى الحياة ؟ أو لم يعترف « دارون » بطل
التاريخ الطبيعى المشهور فى مذكراته الخاصة : أن انكبابه على
« العلم البحث » قد أفقده لذة ذلك الشعور العظيم بالجمال ؟ أو لم
يصرح بأنه لو ارتد صغيراً لأخذ نفسه كل يوم بترتيل قصيدة
من الشعر ، وسماع لحن من الموسيقى ، ورؤية آية من آيات الفن
لثلا يفقد على مر الزمن أسمى شعور بالسعادة يتاح للإنسان ؟
وكذلك قيمة الدين فى التربية عظيمة ولا سيما فى هذا العهد المادى
الجنش الذى يملأ الإنسان عتواً وغروراً . ذلك أن الشعور
الأساسى فى الدين هو الضعف والاعتماد ، ويؤدى ذلك بنا إلى
الاحساس « بالجوهرا الخالد » فى أمثل صور وأعظمها ، وإلى
الفناء فيه والرضا بقضائه وقدره فيسهل علينا احتمال الحياة ،
وتقدم على الكفاح فيها بقوة وبأس وإقدام . ولكن لما كانت
دراسة الدين فى المدارس تؤدى أحياناً إلى نزعات وعصبيات

طائفية، فإن الأمل في « العلم » وفي لباقته وحسن منزهه لم يزل كبيراً. ذلك أنه يستطيع أن يكون أمام التلاميذ « نبياً » لا شيخاً ولا حاكماً ولا مطراناً !

٣ - وأما « الخير » فسيبيله « الإرادة » ويشمل الأخلاق والقانون والنظم والسنن والتاريخ. ويرى « هيجل » أن هذا الأخير (التاريخ) « هو النحو الذي يكافح به الحق على مسرح الحياة، والذي يحقق به إرادة الإنسان إرادة الله »؛ أما الدساتير فهي إرادة الأمة ممثلة في وثيقة، وأما القوانين فهي إرادة الجماعة فيما يخص خيرها العام ^(١)، وأما الأخلاق فهي كلمة الضمير فيما يخص قدر الإنسان وأعماله مع الناس، ومجال الحرية فيها أنفسح وأسمى من مجال القانون... وقيمة هذه العلوم في التربية عظيمة أيضاً، إذ بها يعلم الناشئ مراكزه في الجماعة ويدرك أنه غاية ووسيلة معاً، كما أنه يستمد من التاريخ ملكة الحكم الصحيح ويملاً ذاكرته وخياله بمحادث فريدة ومثل عليا وبطولات فذة؛ وهذا وغيره يجعله عضواً اجتماعياً يفهم ما له وما عليه، ويصدر أحكامه الخلقية والدستورية على المواقف المعقدة التي تعرض له فلا يكون مجرد « إمعة » يصفق لكل متكلم، ويتشيع لكل كاتب، ويمبد ما لا يستحق أن يمبد، ويتغير ويتحول بهبوب العواصف الطبيعية أو المصطنعة... كما أنه يجعله طامعاً أبداً إلى أن يكون بطلاً هو أيضاً، فيقف موقف الجهاد الذي وقفه « شنطن »، أو يصرخ صرخة الحق التي صرخها « سمد زغلول » !

وأما فائدة الجماعة ذاتها من التربية فلا تكاد تقدر - إذ هي تحفظ لها « الماضي » وتصونه كالحارس الأمين ^(٢) كما تستطيع الأجيال أن تبنى عليه لتعليه، وهي تصون الحاضر وتسمد أهله وتقوى الرأي العام كما قال الزعيم شنطن، وتحرم الناس وتضمن لهم حكومة صالحة. ثم هي تحوّل الإجرام أو تقلله بفضل تنميتها للشعور والإرادة والمسئولية، ويفضل تحويلها

(١) ويكون علم القانون مع علم الدستور علم السياسة

(٢) ويقول فيلسوف: « إذا هدم صرح العلم الذي أفاقه الإنسانية في قرون طويلة فلن يستطيع أحد إعادة بنائه سريعاً سوى الله تعالى »

الزعات الشاذة إلى نواح أخرى صالحة، وتقويتها الشعور ضد الإجرام. يقول الأستاذ « فالكتر » إن الإجرام يقل في الأمم المتمدنة من حيث معناه الأدبي، فإن وجد بعد ذلك إجرام بالمعنى القانوني فإنما مرجه ظروف أخرى تقتضي الإصلاح والتعديل ^(١)؛ وأخيراً تضمن التربية مستقبل الجماعة إلى حد كبير. أليس الإبقاء على الماضي الجدير بالإبقاء تحسناً للمستقبل؟ أو لا يزيد امتلاكنا للطبيعة كل يوم بفضل ما ندخله على الماضي من تحسين؟ أو لا توجد علوم الطبيعة عملاً للملايين العمال؟ أو لا تخرج لنا أولئك العلماء الأفذاذ يخضعون البحر والجبل والهواء لإرادتنا؟ ثم إذا كانت التربية لا تخلق عبقرية الفنان أو العالم أو الفيلسوف أفليست تصيدها بشبكها المحكمة؟ أو ليست تمدّها بمادة الإزهار والإيتان ^(٢)؟

وإذا فالترية في هذه الناحية الاجتماعية، كما يقول الأستاذ هورن: « هي أحسن وسيلة للملاءمة بين الفرد وبين البيئة العقلية والمادية والإرادية »

الناحية النفسية

وأما هذه الناحية فتبحث في طبيعة النشاط العقلي، وفي نوع النمو العقلي، وفي صفات العقل النامي:

١ - فمن حيث طبيعة النشاط العقلي: يرى الجميع أن العقل أساس الإدراك والوجدان والنزوع، وأنه لا ينمو بغير عمل كما هو الشأن في كل شيء، وأنه مرتبط في نموه بنمو الجهاز العصبي وبدرجة احتكاكه بالوسط حوله، وأنه يحتاج فيما يتمرض له من تقليد وشوق وجهود إلى رعاية حتى يكون نموه كاملاً. فثلاً يجب أن يرى الطفل مثلاً حسنة يقلدها، ويجب أن تكون المدرسة آية في النظافة والنظام والجاذبية والجمال حتى يرتاح إليها ويعمل بتعاليمها، ويجب أن تكون شخصية المدرس قوية تحمل

(١) ومن هنا كان ما ينفق على التعليم يعوض في نواحي المحاكم والسجون والمستشفيات والإصلاحات وغيرها

(٢) أثبت الاختصاص أن الخالدين من رجال الجامعات أكثر من غيرهم. فمن كل أربعين جامعا يخلد رجل واحد بينما لا يخلد من كل ألف من غير الجامعيين غير واحد. وكل خريج جامعي يعادل ٢٥٠ رجلاً عادياً (أنظر كتاب هورن في فلسفة التربية)

في أن الطفل « يرى » ، والشاب الباكر « يفهم » ، والشاب المتأخر « يتأمل ويحكم »

٣ - بقيت صفات العقل النامي ، ويمكن إنجازها في أن التلميم نشاط وخلق لا تسلم وقبول ، وتأمل وتفكير لا وعي وحفظ ، وقوة معرفة أكثر منه معرفة فحسب : حواس مرهقة ، وعقل واسع المدى راغب في المعرفة برىء الآتياء ؛ وحب للحق المجرد عن التدجيل والهويش ؛ ومعرفة بالعالم لا تترك شيئاً فيه خرافياً ، وإحاطة بالنفس بمد الاحاطة بالعالم ؛ وخيال يقدم الفروض للعلم والابداع للفن ، والاحياء للتاريخ ؛ وحكم مدرب حصيف عام النظرة منطقي الخطوات ؛ وذوق جميل مهذب يدمج الانسان في الكون ويجعله جليلاً في كل شيء ؛ وشعور أخلاق راق يدرك الخير والشر ، ويحكم على الخير والشر ، ويلوح بساعد الارادة القوية أمام كل إغراء حقير ؛ وحب للعمل وتلذذ به ؛ وإحساس بالسعادة يمتلك قوى الشخص جميعاً ويجعله يعيش هائلاً مظمئاً حتى الضمير حر الارادة جريء الجنان ؛ واتفاق مع السماء وأطمئنان للنهاية المحتومة التي تنقلنا من عالم ناقص إلى عالم كامل . هذا إلى نواضع نزيه ، وعشق لأحسن ما في الحياة كله حماس ؛ ووفاق تام مع النفس لا يترك في الشخص أدنى نزاع ؛ وتعليم للغير هو رسالة النور تبديد ظلام الحياة ؛ وحياة تغني النفس في الكون لا الكون في النفس ، ولا تشغل المهندس أو الطبيب عن نواحي العيش الأخرى بما فيها من خير وجمال ...

يقول « هكسلي » : « للرجل المثقف جسم خاضع لارادته ، وعقل صاف متشد القوى سهل العمل مليء بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية . هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحى ، وإلى حب للجمال وكره للقبس ، وإلى احترام للنفس وللناس ، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها ، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمة الحنون » وتكون التربية هنا هي « الملامة بين الرجل التام النمو الجسمي والعقلي ، وبين بيئته العقلية والمطافية والارادية » (١)

(١) أنظر كتاب الأستاذ هورن في فلسفة التربية ، وقد اعتدنا عليه في هذه المقالة والمقالة السابقة اعتماداً كبيراً .

النشء على احترامها وحبها والأخذ منها (١) ، هذا من حيث التقليد الذي هو إعلان للنفس يؤدي إلى الاستقلال

أما من حيث الشوق فيجب أن يكون موضوع الدراسة مثيراً لرغبة الطفل وحافزاً لاهتمامه ، لأن ذلك كما يرى الأستاذ « شيرمان » أهم كلمة في التلميم . وأضمن سبيل لإثارة الشوق هو للمدرس نفسه إذا كان محباً لمهنته ومتحمساً لمادته . وأما من حيث الجهد - وهو ما يبدله المرء في عمل لا يسير شعوره - فيجب - لتفويته - غرس الآمال العذبة البعيدة في نفوس الناشئين ، ويجب تمويدهم بخالفة أهوائهم في أمور طفيفة كل يوم حتى تكون لديهم المناهضة الكافية ضد كل إغراء دنيء . ويجب التوفيق بين الشوق نفسه والجهد بحيث يصبح الأول كالنسيم الذي يهب على سفينة حياتنا أحياناً ، ثم يتعرج عنها أحياناً أخرى ، فيقوم لنا الجهد حينئذ مقام المجاديف التي توصلنا إلى البر سالمين ، ولنعتمد أبدأ أن السكال كائن في اتحاد الشوق والجهد حتى يكون المرء ساجحاً « مع » التيار لا فوقه ولا ضده ...

٢ - وأما من حيث نوع النمو العقلي فقد أثبت علم النفس أن هناك مراحل يجب رعايتها في حلقات التربية والتعليم حتى يكون النمو سليماً . فالطفولة مثلاً تمتاز بالذلة والألم وتزعزع الإرادة . وإذا فلتكن التربية هنا حسية بحثة كثيرة التسامح واللعب . وفي الشباب الباكر تنمو الصداقة والحب ، والطموح وروح الاجتماع ، وإحساس الخير والجمال ، كما تتذبذب الأخلاق وتسود العاطفة . وإذا فلتكن الدراسة هنا مليئة بالتاريخ الطبيعى ، والسياسى ، وبالقصص السامى ، وبكل ما يؤدي إلى سرعة الحكم ودقته ، وإلى كل ما يتساقى بالمواطن والفرائر وينفوس روح المحبة والتعاون ، ويرشد الناشئ إلى كيفية حماية نفسه مما يتعرض له من عادات سريّة وسقوط خلقى وأنهيار جنسى ... (وإن كان لا يزال هناك من يعتقد أن التحدث في مثل ذلك للشبان وقاحة وفسق !!) ؛ وفي الشباب المتأخر تتمركز الشخصية ويستقر العقل وتسود الوحدة . وإذا فلتكن الدراسة هنا مرتقية إلى نظرات كلية جامعة لقوانين الوجود العامة ... ويخلص هذا كله

(١) قال القديس بطرس للشيخ عليه السلام : « إلى من تذهب أيها الأب الأقدس ؟ إن كلامك في الحياة كلام الخلود »

موت سقراط

La Mort de Socrate

للشاعر الفرنسي الكبير لامارتين

ترجمة السيد احمد عيتاني

تذكر لنا الرواية اليونانية أن سقراط حينما حكم عليه بالموت أشار عليه أصدقاؤه بمغادرة أثينا والنجاة بنفسه ، فأبى عليهم ذلك ، وآثر الموت على الفرار . ولما قدمت إليه كأس السم تجرعها بجرأة ورياسة جأش ، ولم يكده يفرغ من تناول ما فيها حتى أجال نظره بين أحمائه ، فلعح عبراتهم تنساقط على وجناتهم حزناً عليه ، وألماً لما حل به ؛ فأله هذا المشهد ، ووقف في أصدقاؤه خطيباً وهو في نزاعه الأخير ، يشرح لهم الموت ونظرته إليه ، ويطلب إليهم أن يكفوا عن البكاء . وقد نظر الشاعر الفرنسي الكبير لامارتين إلى هذه الرواية ، فنظم حوادثها في شعر يقين رقة وعذوبة وجمالا وسلاسة ، وجعل عنوانها « موت سقراط » . وفيما على خطبة سقراط بعد تجرعه السم ، وهي من أروع ما جاء في هذه التصديفة الفذة « أجد عيتاني »

ماذا ؟ ! أتكون أيها الأصدقاء ؟ !
أتكون وقد تحررت روحى من أقالها الجسدية الدنيئة
فهي كالبخور تحرقه الكاهنة
على وشك الطيران نحو الآلهة ؟ !
أتكون أيها الأصدقاء
حينما ترحب روحى بهذا اليوم الطاهر
الذى كانت تطمح إليه ؟ !
حينما توشك على السفر في رحله مقدسة
تبحث فيها عن الحقيقة
فتعثر عليها ، وتتعرف إليها ؟ !

إذا علام الحياة إذا لم يكن مصيرنا الموت ؟ !
علام أحببت الألم في سبيل العدالة ؟ !
علام كانت نفسى الجبسة
تقاوم حواسها وميولها الدنيئة العنيفة
أثناء تلك الميتة التى تسمونها الحياة ؟ !
ماذا عسى تكون الفضيلة بغير الموت أيها الأصدقاء ؟ !
ذاك ثمن المعركة ، ذاك تاج سماوى

اسطرار التربية

بقيت كلمة صغيرة نختم بها هذا البحث الذى مهدنا به لنقد التربية في مصر ، وهي كيف تفسر الفلسفة إمكان التربية من الناحية الميتافيزيقية ؟ يقول « كانت » في كتابه عن التربية : « إذا تدخل مخلوق أرق منا في تربيتنا فلسوف نرى إلى أى مستوى يبلغ الإنسان ، وإن الإنسان لا يصير إلى ما يستطيع أن يكونه إلا بالتربية . كما تسأل : أين هي النفوس التى فطرها الطبع على الشر حتى تبقى مستعصية على حزم أم رحيمة وسلطة أب محب ؟ » . فترى هل يقوى المدرس حقاً على التأثير في الناشئ ، أو بالأحرى هل الإنسان « حر » حتى تصلحه التربية ؟ أما العلم فيقول « بيجرية » للسادة وبعتماد العقل — وهو أساس التربية — على « مادة المخ » ... فكيف إذا نستطيع تغييره ؟ ينقذنا الأستاذ « هيزنبرج »^(١) فيقول : « إن « جبرية » المادة نفسها موضع شك لأننا لا نستطيع التنبؤ بحالة « الأنوم » المستقبلة إلا بمعرفة مركزه وممرته في لحظة واحدة . وذلك محال ... ومع كل هذا هو الإنسان قد خلق لنفسه دنيا واسعة عريضة من التأمل ، وسما بخلفه وتطور وتغير ، وخرج على ما قد خالوه « قانوناً » ، مما يثبت أنه « حر » بالفعل . وإذا قال قائل : إن العالم يسير وراء « غاية » خفية ، وإن الإنسان كجزء منه مضطر أن يحقق « مجبوراً » هذه الغاية ؟ سألنا : وهل تمنع « حرية » من تحقيق الناية الكبرى إذا كانت هذه الحرية محدودة بمحدودها الخاصة ؟ إن القول بالغائية والجبرية الضيقين يجعل الإنسان مجرد ألعوبة ، ومسؤوليته الخلقية مجرد تناقض محزن . يقول برجسن في كتابه^(٢) : « الحرية تجربة راسخة وإن كان الفكر ينكرها »

(بنع)

محمد موسى فاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

يسرني أن أسجل هنا شكرى « للرسالة » الغراء على تكرمها بإفراح صدرها لهذا البحث التواضع ، وأعداء وأعداء القراء الكرام بتطبيق الحقائق الآتية على التربية في مصر إبداء من العدد القادم إن شاء الله ، وأرجو كل من يريد أن يتكرم على بملاحظة ما أن يكتب إلى على مدرسة شبرا الثانوية الأميرية للبنين

(١) أنظر كتاب Attlee في « الفلسفة في نظرية التربية »

(٢) أنظر كتابه Les Données Immed. de La Cone.